

﴿سُورَةُ الْقَدْرِ﴾

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ.

أَشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى تَعْيِينِ الْوَقْتِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِإِنْزَالِ أَوَّلِ الْقُرْآنِ، وَالتَّنْوِيهِ بِفَضِيلَةِ ذَلِكَ الْوَقْتِ عِنْدَ اللَّهِ، وَسَرِيَانِ ذَلِكَ الْفَضْلِ إِلَى مَا يُمَاطِلُهُ مِنَ الزَّمَانِ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَتَقْدِيرِ ذَلِكَ الْوَقْتِ بِجَعْلِهِ لَيْلَةً كَامِلَةً، إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ الْمُوَالِي لَهَا، وَذَلِكَ تَنْبِيْهُ لِلأُمَّةِ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (٢) تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (٣) [القدر: 1 - 5].

قَدْ خَصَّصَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَ الْأَزْمَانِ بِفَضَائِلَ أَعْلَمْنَا إِثَابَهَا، وَهُوَ أَعْلَمُ بِأَسْبَابِهَا، وَمِنْ تِلْكَ الْأَوْقَاتِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَهِيَ لَيْلَةٌ عَرَفَهَا اللَّهُ بِهَذَا الْعِلْمِ الْإِضَافِيِّ. وَ«الْقَدْرُ»: الشَّرَفُ وَعُلُوُّ الشَّانِ.

وَأَرْشَدَنَا إِلَى أَنَّهُ اخْتَارَهَا لِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ لِعِظَمِ قَدْرِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَاخْتِيَارُ أَفْضَلِ الْأَوْقَاتِ لِابْتِدَاءِ إِنْزَالِهِ يُنْبِئُ بِسُمُوهِ عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْأَحْوَالَ وَالْأَزْمَانَ تَدُلُّ عَلَى مَكَانَتِهِ مَا يَقَعُ مَعَهَا.

فَلَيْلَةُ الْقَدْرِ الَّتِي أُنْزِلَ فِيهَا الْقُرْآنُ قَدْ انْقَضَتْ قَبْلَ أَنْ يَشْعُرَ بِهَا أَحَدٌ، عَدَا مُحَمَّدًا ﷺ، فَكَانَ فَضْلُهَا بِابْتِدَاءِ رِسَالَتِهِ، وَأَنَّهَا تَنْزَلُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ، أَيْ تَقْتَرِبُ

مِنْ عَالَمِ النَّاسِ.

وَذُكِرَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى أَنَّهَا لَيْلَةٌ مُبَارَكَةٌ، وَفِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ، فَجَمَعَ اللَّهُ لَهَا فَضَائِلَ تَنْوِيهَا بِشَأْنِهَا، فَتَفْضِيلُ اللَّيَالِي الْمُوَافَقَةِ لَهَا مِنْ كُلِّ عَامٍ تَنْوِيهِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ ﷺ، وَفِيهِ تَعْرِيفٌ بِفَضْلِ أَمْثَالِهَا مِنْ كُلِّ سَنَةٍ لِقَوْلِهِ: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، وَتَعْلِيمٌ لِلأُمَّةِ بِأَنْ تُنَوَّهَ بِأَيَّامِ النِّعَمِ وَلَيَالِيهَا، كَمَا قَالَ لِرَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: 7]، وَلَمْ يَزَلْ مِنْ سُنَّةِ الْأَدْيَانِ إِعْلَانُ فَضَائِلِ لَأَوْقَاتٍ جَرَتْ فِي أَمْثَالِهَا أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ.

وَهَذِهِ السُّورَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ عَرَفُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَفَضْلَهَا مُنْذُ كَانُوا بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ أُنْزِلَ فِي رَمَضَانَ؛ إِذْ قَالَ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي فِيهِ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 184]، فَعَلِمْنَا أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ تَقَعُ فِي رَمَضَانَ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُبَيِّنْ أَنَّهَا آيَةٌ لَيْلَةٍ مِنْهُ، وَدَلَّتْ أَحَادِيثُ صَحِيحَةٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْلَةٌ غَيْرُ مُعَيَّنَةٍ مِنْ كُلِّ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الْمَلْحُوظُ فِي مُوَافَقَتِهَا أَنَّهَا الْمُوَافَقَةُ فِي الْوُقُوعِ فِي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الْأُسْبُوعِ، لَا فِي الْعَدَدِ مِنْ لَيَالِي الشَّهْرِ أَنَّهَا لَيْلَةٌ مَادَا وَلَا لَيْلَةٌ كَمْ.

وَفِي هَذَا مَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ لَيْلَةٌ جُمُعَةٍ لِأَنَّ الْبَحْثَ عَنْ تَطَلُّبِهَا فِي بَعْضِ لَيَالِي الشَّهْرِ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ مِنْ أَفْضَلِ لَيَالِيهِ، وَلَا أَفْضَلَ مِنْ لَيَالِي الْجُمُعَةِ،

فَهِيَ لَيْلَةٌ جُمُعَةٌ لَا مَحَالَةَ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ الَّتِي أُنْزِلَتْ فِيهَا نُزُولُ الْقُرْآنِ كَانَتْ فِي الْعَشْرِ
الْأَوَاخِرِ، وَأَنَّ اللَّهَ أَبْهَمَ عَدَدَهَا لِيُحَرِّضَ النَّاسَ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الْعَشْرِ
الْأَوَاخِرِ كُلِّهَا.

وَأَفْتَتَاحُ الْكَلَامِ بِحَرْفِ التَّأْكِيدِ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ - بِدُونِ تَوَقُّعِ انْكَارٍ - لِمُجَرِّدِ
الاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ، وَهُوَ تَفْضِيلُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَصَبُّ التَّأْكِيدِ هُوَ
فِعْلُ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، وَهُوَ الْخَبَرُ، وَيَحْصُلُ تَأْكِيدُ الْمُتَعَلِّقِ تَبَعًا.
وَالضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ لِلْقُرْآنِ الْمَعْلُومِ مِنْ فِعْلِ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾.
و«الْقَدْرُ»: الشَّرَفُ وَالْكَرَامَةُ.

﴿مَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ تَنْوِيهٌ بِشَأْنِهَا لِمَا فِي الْإِبْهَامِ مِنْ تَعْظِيمِ
الشَّأْنِ وَعُسْرِ إِدْرَاكِ كُنْهَيْهَا، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾
﴿٤﴾ فِي سُورَةِ الْانْفِطَارِ.

وَأُعِيدَ اسْمُهَا الظَّاهِرُ دُونَ الضَّمِيرِ لِرِيَادَةِ الْاهْتِمَامِ بِهَا، وَكَذَلِكَ إِظْهَارُهَا فِي
قَوْلِهِ: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، فَوَقَعَ ذِكْرُ لَفْظِهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،
وَهَذَا مِنْ إِخْرَاجِ الْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ - الَّذِي هُوَ الْإِضْمَارُ -
لِنُكْتَةِ الْاهْتِمَامِ، كَقَوْلِ الْعَرَجِيِّ:

* لَيْلَايَ مِنْكَ أَمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ *

وَالْمُرَادُ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مِنْ أَشْهُرٍ لَيْسَتْ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

وَعَدَدُ الْآلْفِ مُرَادُّ بِهِ التَّكَثِيرُ، مِثْلُ السَّبْعِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: 81].

وَالْمُرَادُّ الْخَيْرِيَّةُ فِي آثَارِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَقَعُ فِيهَا مِنْ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ وَاسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَبَرَكَاتِ الصَّدَقَةِ وَنُزُولِ الْبَرَكَاتِ لِلْأُمَّةِ.

وَفِي الْمَوْطَأِ قَالَ مَالِكٌ: إِنَّهُ سَمِعَ مَنْ يَثْقُ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرَى أَعْمَارَ النَّاسِ قَبْلَهُ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَكَأَنَّهُ تَقَاصَرَ أَعْمَارُ أُمَّتِهِ أَنْ لَا يَبْلُغُوا مِنَ الْعَمَلِ مِثْلَ مَا بَلَغَ غَيْرُهُمْ فِي طُولِ الْعُمُرِ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ⁽¹⁾.

وَجُمْلَةُ ﴿لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ وَاقِعَةٌ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا مَوْقِعَ الْبَيَانِ لِلتَّنْوِيهِ الَّذِي أَقْتَضَاهُ قَوْلُهُ: ﴿مَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾، فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ عَنْهَا.

وَجُمْلَةُ ﴿تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بِمَنْزِلَةِ الْبَيَانِ لِلْخَيْرِيَّةِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بَعْضُ وُجُوهِ الْخَيْرِيَّةِ، وَلِذَلِكَ فُصِلَتْ الْجُمْلَةُ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَلَيْسَتْ خَبَرًا ثَانِيًا عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

وَأَصْلُ ﴿تَنْزَلُ﴾ تَنْزَلُ، حُذِفَتْ إِحْدَى التَّاءَيْنِ تَخْفِيفًا. وَنُزُولُ الْمَلَائِكَةِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ لِبَرَكَاتِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ. وَالتَّعْيِيرُ بِالْمُضَارِعِ ظَاهِرُهُ أَنَّ ذَلِكَ مُتَكَرِّرٌ فِي كُلِّ عَامٍ.

(1) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الاعتكاف، باب ما جاء في ليلة القدر. (899)

وَالرُّوحُ: جِبْرِيلُ.

وَفِيهَا مُتَعَلِّقٌ بِتَنْزِيلِ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

وَقَوْلُهُ: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» يَتَعَلَّقُ بِتَنْزِيلِ، وَ«الْبَاءُ» لِلْمُصَاحَبَةِ.

وَالْإِذْنُ بِمَعْنَى الْمَأْذُونِ بِهِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ بَيَانُهُ بِقَوْلِهِ: «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ أَيْ: بِمَا أذنَ اللَّهُ بِهِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَأْذُنُ بِهِ لِذَلِكَ، فَالْأَمْرُ هُنَا بِمَعْنَى الشَّيْءِ الْمُهِمِّ، أَيْ: بِمَا أذنَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرَاتِ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَالتَّنْكِيرُ فِي «أَمْرٍ» لِلتَّعْظِيمِ، أَيْ: مِنْ كُلِّ أَمْرٍ مُهِمٍّ.

وَجُمْلَةُ «سَلَامٌ» مُسْتَأْنَفَةٌ أَسْتِئْذِنُ بَيَانًا نَاشِئًا عَنِ الْإِخْبَارِ بِتَنْزِيلِ الْمَلَائِكَةِ فِيهَا، فَالنَّفْسُ تَشْتَاقُ إِلَى مَعْرِفَةِ أَثَرِ هَذَا التَّنْزِيلِ فَلْخُصَّ ذَلِكَ فِي جُمْلَةٍ «سَلَامٌ هِيَ»، أَيْ: تِلْكَ اللَّيْلَةُ سَلَامٌ.

وَالسَّلَامُ بِمَعْنَى السَّلَامَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «كُونِ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ» [الأنبياء: 68]، وَهُوَ اسْمٌ يَشْمَلُ كُلَّ خَيْرٍ؛ لِأَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ سَلَامَةٌ مِنَ الشُّرُورِ وَالْأَذَى، فَيَصْدُقُ ذَلِكَ بِالْغُفْرَانِ لِأَنَّهُ سَلَامَةٌ مِنَ النَّارِ، وَيَصْدُقُ بِإِعْطَاءِ الْمَطْلُوبِ لِأَنَّ النَّاسَ يَسْأَلُونَ الْمَنَافِعَ وَالسَّلَامَةَ مِنَ الشَّرِّ.

وَقَدْ جُعِلَتِ اللَّيْلَةُ نَفْسَ السَّلَامِ إِخْبَارًا بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ لِشِدَّةِ مَا يَحْصُلُ فِيهَا مِنَ السَّلَامَةِ، فَكَانَهَا هِيَ نَفْسُ السَّلَامِ.

وَسَلَامٌ خَيْرٌ مُقَدَّمٌ؛ إِذْ لَيْسَ الْمُرَادُ الْإِخْبَارَ عَنِ السَّلَامِ بِأَنَّهُ هُوَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ هِيَ السَّلَامُ، أَيْ: زَمَنُهُ. فَالْمَقْصُودُ مِنْ تَقْدِيمِ

المُسْنَدِ قَصْرُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْمُسْنَدِ، أَي: مَا هِيَ إِلَّا سَلَامَةٌ. وَالْقَصْرُ
إِضَافِيٌّ، أَي: هِيَ سَلَامٌ، لَا غَيْرُ سَلَامٍ؛ أَي: لَا يَقَعُ فِيهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا
السَّلَامَةُ لِلْعَامِلِينَ فِيهَا.

﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ غَايَةُ لِلْإِحَاطَةِ، أَي: لَيْسَتْ السَّلَامَةُ فِي بَعْضِ
أَجْزَائِهَا دُونَ بَعْضٍ، بَلْ فِي جَمِيعِهَا إِلَى أَنْتَهَائِهَا.

﴿أُسْلُوبُ هَذِهِ السُّورَةِ﴾

أَبْتَدَتْ السُّورَةُ بِحَرْفِ التَّوَكِيدِ لِلإِذَانِ بِأَهَمِّيَّةِ الْعَرَضِ، وَأُسْنَدَ الْإِنْزَالِ إِلَى
ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ بِصِيغَةِ التَّعْظِيمِ إِذَا نَا بَتَعْظِيمِ شَأْنِ الْمُنْزَلِ وَالْمُنْزَلِ عَلَيْهِ.
وَأُدْمَجَ التَّنْوِيهِ بِلَيْلَةٍ أَبْتَدَاءِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ بِأَنْ وَصِفَتْ بِالْقَدْرِ، وَهُوَ الشَّأْنُ،
وَبِمَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ تَعْظِيمًا لِحَقِيقَتِهَا الْمُسْتَفَادَةِ
مِنْ كَلِمَةِ ﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾.

وَتُخْلَصَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى مَا يَقَعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَإِلَى اسْتِيفَاءِ زَمَانِهَا إِيمَاءً إِلَى
الْتَّرَغِيبِ فِي تَطَلُّبِهَا، وَتَوْسِيعَةً عَلَى طَالِبِهَا أَنْ يَتَعَبَّدُوا فِي أَوَّلِهَا أَوْ وَسْطِهَا أَوْ
آخِرِهَا.

وَأَذَنَ قَوْلُهُ: ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ بِأَنْتَهَاءِ الْكَلَامِ عَلَى تِلْكَ
الْلَّيْلَةِ، وَهُوَ تَنَاسُبٌ بَيْنَ نِهَائَتَيْنِ، فَفِيهِ مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ وَحُسْنُ الْمَقْطَعِ.

